نهاية فكرة المجتمع من خلال كتاب "في أي مجتمع نعيش؟" لكل من فرانسوا دوبي ودانيلو مارتوشيلي

End of the Idea of Society through the Book "In What Society Do We Live?" By François Dubet and Danilo Martuccelli

أ. **إدريس الحاتمي:** طالب باحث في سلك الدكتوراه، مختبر علوم التربية والفلسفة والإنسانيات المدرسة العليا للأساتذة، جامعة مولاي إسماعيل بمكناس، المغرب.

د. **عبد الله بربزي:** أستاذ جامعي مؤهل، مختبر علوم التربية والفلسفة والإنسانيات، المدرسة العليا للأساتذة، جامعة مولاي إسماعيل بمكناس، المغرب.

Mr. Idris Al-Hatmi: A **research** student in the doctoral program, Laboratory of Educational Sciences, Philosophy, and Humanities, Higher School of Teachers, Moulay Ismail University, Meknes, Morocco.

Email: elhatimydriss@gmail.com

Dr. Abdullah Barbazi: A qualified university professor Laboratory of Educational Sciences, Philosophy, and Humanities, Higher School of Teachers, Moulay Ismail University, Meknes, Morocco.

Email: barebzia@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.56989/benkj.v5i2.1340

تاريخ الاستلام: 2024-11-25 تاريخ القبول: 2025-01-13 تاريخ النشر 2025-02-01

الملخص:

عرف الحقل السوسيولوجي مصطلحات مهمة مرتبطة بمفهوم النهاية، كنهاية المجتمعات لآلان تورين، ونهاية السرديات الكبرى أو الأفكار الكبرى لجان فرانسوا ليوتار، ونهاية اليوتوبيا لمجموعة من المفكرين أبرزهم هربرت ماركيوز، ونهاية التاريخ لفرانسيس فوكوياما وغيرهم من المفكرين أو علماء الاجتماع الذين اهتموا بموضوع النهايات من خلال رصد التحولات والتغيرات الطارئة على المجتمعات، والتي غيرت بشكل جذري وعميق بنيتها وهيكلها وشكلها عبر مسارها التاريخي والاجتماعي والثقافي. وانضاف إلى هؤلاء المفكرين المهتمين بموضوع النهايات عالمي الاجتماع فرانسوا دوبي ودانيلو مارتوشيلي الذين حاولا مناقشة "نهاية فكرة المجتمع" من خلال كتابهما "في أي مجتمع نعيش؟" الذي يوضحان من خلاله أنه لا يمكن التخلي عن فكرة المجتمع باعتبارها موضوع علم الاجتماع؛ لأن بناء تصور للحياة الاجتماعية جزء من رسالة هذا العلم.

الكلمات المفتاحية: المجتمع، نهاية المجتمعات، نهاية فكرة المجتمع، نهاية اليوتيوبيا، نهاية التاريخ.

Abstract:

The sociological field has known important terms related to the concept of "end", such as Alain Touraine's "end of societies", Jean-François Lyotard's "end of grand narratives or big ideas", “the end of utopia" by several thinkers, most notably Herbert Marcuse, Francis Fukuyama's "end of history", and other thinkers or sociologists who were interested in the subject of endings through monitoring the transformations and changes occurring in societies, which radically and deeply changed their structure, framework, and form throughout their historical, social, and cultural path. Sociologists François Dubet and Danilo Martuccelli joined these thinkers interested in endings, as they attempted to discuss "the end of the idea of society" through their book "In What Society Do We Live ?" in which they explain that the idea of society cannot be abandoned as a subject of sociology, because building a conception of social life is a part of this science's mission.

Keywords: society, end of societies, end of the idea of society, end of utopia, end of history.

تمهيد:

يعد مفهوم النهاية من المفاهيم المركزية الذي يتم دراسته ابستيمولوجيا من طرف العديد من علماء الاجتماع خاصة المهتمين بعلم الاجتماع النظري، حيث يسعون إلى دراسة وفهم وتحليل عمليات التغيير والتغير والتحول التي تطرأ في المجتمعات من خلال البحث في كيفية تغيرها وتطورها وتحولها وتجديدها. ويشير مفهوم النهاية سوسيولوجيا إلى نهاية ظاهرة اجتماعية، أو مؤسسة اجتماعية، أو ممارسة ثقافية، أو حتى حقبة زمنية في المسار الوجودي والاجتماعي والثقافي لمجتمع معين، حيث يسمح المنظور السوسيولوجي بتحليل الديناميكيات الاجتماعية، والأزمات، والتحولات، والقطائع، والتغيرات الثقافية التي تميز تاريخ المجتمعات البشرية.

ويرتبط مفهوم النهاية في علم الاجتماع غالبا بمنظورات ونظريات مختلفة تُعنى بدراسة عمليات التحول والتغير وديناميكيات المجتمع ككل، سواء من ناحية الميكروسوسيولوجيا أو الماكروسوسيولوجيا أو حسب المثون السوسيولوجية، الفرد مقابل البنية. وعرف الحقل السوسيولوجي بصفة خاصة والعلوم الإنسانية والاجتماعية بصفة عامة مصطلحات مهمة مرتبطة بمفهوم النهاية كنهاية المجتمعات لآلان تورين، ونهاية السرديات الكبرى أو الأفكار الكبرى لجان فرانسوا ليوتار، ونهاية اليوتوبيا لمجموعة من المفكرين أبرزهم هربرت ماركيوز، ونهاية التاريخ لفرانسيس فوكوياما وغيرهم من المفكرين أو علماء الاجتماع الذين اهتموا بموضوع النهايات من خلال رصد التحولات والتغيرات الطارئة على المجتمعات، والتي غيرت بشكل جذري وعميق بنيتها وهيكلها وشكلها عبر مسارها التاريخي والاجتماعي والثقافي. وقد انضاف إلى هؤلاء المفكرين المهتمين بالنهايات عالما الاجتماع فرانسوا دوبي ودانيلو مارتوشيلي، الذين حاولا مناقشة "نهاية فكرة المجتمع" من خلال كتابهما "في أي مجتمع نعيش؟" الذي يقع في 312 صفحة، ويضم إحدى عشر محورا، والصادر عن دار النشر سوي (Le Seuil) في 11 مارس 1998.

مفهوم المجتمع كإشكالية سوسيولوجية:

يعد مفهوم المجتمع من أكثر المفاهيم استشكالا في الدراسات السوسيولوجية، فرغم وضوحه في المعنى العام، وفي طرق تداوله بين غير المتخصصين في هذا المجال العلمي، فإن ما ينطوي عليه من معانٍ ودلالات في المثن السوسيولوجي لا تنطبق بالضرورة على المعنى الشائع له. لذلك يجد السوسيولوجيون أنفسهم أنهم يتداولونه للتعبير عن معان ترتبط بتصوراتهم له، وبالسياق الثقافي والعلمي الذي ينتمون إليه، لأنهم معنيون بكافة المعاني المختلفة التي يحملها مختلف الأفراد عن المجتمع. فالباحثون السوسيولوجيون يهتمون بالطرق والصيغ والأشكال التي تنتظم من خلالها العلاقات والروابط الاجتماعية في الجماعات والمجموعات البشرية، والتي تظهر في العادات، والتقاليد، والقيم، والمعايير، والقواعد المنظمة للعلاقات. لذلك فهم معنيون بالدرجة الأولى بتحديد معناه الحقيقي،

وتقديم تعريف دقيق له من حيث احترام الضوابط الإبستيمولوجية والمنهجية والشروط العلمية الموضوعية المؤطرة لإنتاج المعرفة السوسيولوجية.

وتشهد السوسيولوجيا المعاصرة حالة من التناقض الشديد من حيث التنظير، نظرا لكثرة النظريات التي تشتغل على مفهوم المجتمع باعتباره موضوع هذا العلم لبناء براديغم للبحث والتقصي عن حقيقة الظواهر الاجتماعية المرتبطة به، الأمر الذي أدى إلى تعدد البرديغمات ونتج عنها اختلاف واسع في التصورات المطروحة، وهناك اختلاف عميق حولها. وفي هذا الصدد، أكد ريمون آرون أن المسألة التي تكاد تكون الوحيدة التي اتفق بشأنها السوسيولوجيون هي صعوبة تحديد موضوع هذا العلم، وفي ذلك ما يدل على أن المشكلة ليست في السوسيولوجيا بقدر ما هي في التصورات المطروحة حول مفهوم المجتمع. ويواجه هذا المفهوم، الذي تتم الاستعانة به كمرجع للمعنى المشترك، حيث يتضح ذلك في المصطلحات المرتبطة به كالمجتمع الحديث، والمجتمع الصناعي، ومجتمع المعرفة، والمجتمع الرقمي وغيرها من المفاهيم، خاصة في السنوات الأخيرة، العديد من النقاشات التي تدور رحاها بين تيارين أساسيين في علم الاجتماع والمتمثلين في الفردانية المنهجية والهولستية. ويجب التأكيد بأن إشكالية مفهوم "المجتمع" في السوسيولوجيا ليست استثنائية، باستثناء أنه مفهوم تأسيسي لها، من حيث الموضوع على الأقل[1] .

وتثير جميع المفاهيم الأساسية، التي ساهمت في بناء المشروع المعرفي للسوسيولوجيا لدى الباحثين، مشاكل دلالية، ووجودية، ومعرفية، ونظرية، ومنهجية محتملة سواء تعلق الأمر على سبيل المثال لا الحصر بمفاهيم "الضبط الاجتماعي" أو "الطبقات الاجتماعية" أو "الانحراف" وغيرها من المفاهيم المؤسسة للمعرفة السوسيولوجية، حيث قد تبدو هذه الإشكالية أنها تسلط الضوء على صدق المعرفة المنتجة من خلال هذه المفاهيم، وبالتالي الوضع التخصصي للسوسيولوجيا نفسها، وتماسكها أو وحدتها. ومع ذلك، وبعيدا عن كونها عقبة، فإنه يمكن اعتبار هذه الإشكالية شرطا ومؤشرًا على انعكاس ما أسماه جان ميشيل بيرثيلو "الذكاء السوسيولوجي"[2].

إن المواقف التي يتبناها علماء الاجتماع فيما يتعلق بهذه الإشكالية المتأصلة في مفهوم المجتمع، بما تكشف عنه من التزاماتهم العملية تجاه التخصص والطريقة التي يتعاملون بها مع الصعوبات المفاهيمية التي تواجههم، تعطي لنا إمكانية التمييز بين منظورين على الأقل في تاريخ علم الاجتماع. يمكن وصف الأول بأنه منظور بنائي يفكر في هذا المفهوم باعتباره أداة إجرائية قابلة

[1] Roberge, Jonathan et Sénécha, Yan et Vibert, Stéphane (2012): la fin de la société: débats contemporains autour d'un concept classique, 1° édition, Canada, Éditeur Athena, p 7.

[2] Roberge, Jonathan et Sénécha, Yan et Vibert, Stéphane (2012): op. cit., p 8.

للتحسين من خلال عملية بحث متكرر بين التاريخ التخصصي، والتأمل المعرفي، والفرضيات النظرية، والأدلة التجريبية الهادفة إلى إلقاء الضوء على فهم كيفية بناء التعايش المشترك بين الأفراد[1].

ويعد جورج سيميل أحد أوائل علماء الاجتماع الذين تبنوا المنظور الأول، حيث تعتبر دراسته المعنونة ب"مشكلة علم الاجتماع" محاولة علمية يهدف من خلالها إلى تحويل فهم مفهوم المجتمع من "كل ما هو بشري" إلى تحليل التفاعل المتبادل بين العديد من الأفراد. ويمكن أيضا وضع ماكس فيبر في هذا المنظور الذي أكد أن "الاجتماعي" كمفهوم، لا يملك دقة كافية لتحديد المشاكل العلمية إلا إذا ما كان مصحوبًا بمستند معين يحدد محتواه، على سبيل المثال "الجانب الاقتصادي والاجتماعي للحياة الثقافية". هذا المنظور البنائي ثابت في تاريخ علم الاجتماع؛ ففي مثونه نشأت مفاهيم مركزية ومهمة كتقسيم العمل الاجتماعي لدوركهايم، والنظام الاجتماعي لبارسونز، والنقد الاجتماعي لهابرماس[2]. ومنذ بداية القرن الواحد والعشرين أكد بعض علماء الاجتماع بشكل منهجي على أهمية مفهوم "المجتمع" وتبرير إعادة النظر فيه وتطويره. ويتحرك هذا التيار بنوع من الاستعجالية لمواجهة تيار قوي الذي يحاول تفكيك مفهوم المجتمع، حيث يرى هذا المنظور التفكيكي أن المشاكل التي تدور حول هذا المفهوم تشكل ذريعة لرفضه، وأنه مفهوم قديم لفهم العالم، وخطاب خيالي يتكرر بشكل تعسفي من نص إلى آخر ولا يستند إلا على وجود الكلمة نفسها[3].

وبرز تيار إعادة النظر في مفهوم "المجتمع" منذ ستينيات القرن الماضي، حيث يتضح في الدراسات التي تركز على الفاعلين، والحركات الاجتماعية، والثقافة، والعولمة، وبشكل عام في سياق أدبيات ما بعد الحداثة. وتعتبر أعمال آلان تورين نموذجا في هذا الصدد، حيث مهد الطريق لسلسلة من الأعمال التي سعت إلى تحديد وتوسيع منظوره في مختلف الآفاق. ويعتبر برونو لاتور كذلك مفكرا مهما في هذا التيار النقدي الذي يطرح الأسئلة حول مفهوم المجتمع، حيث قدم تحليلات بخصوص هذا الموضوع استنادًا إلى أعماله في العلوم والتقنيات. ولكن تبقى التحليلات التفكيكية التي عرفت انتشارا واسعا، هي تلك التي ترجع إلى بودريار والمتمثلة في مقولة "نهاية الاجتماعي"، التي مهدت لظهور سوسيولوجيا ما بعد المجتمعات[4].

وبدأت الانتقادات المعاصرة لمفهوم المجتمع بنص لجوناثان روبرج الذي اعتمد على أعمال آلان تورين ليظهر أن الفعل الاجتماعي، والتاريخ، والحركات الاجتماعية، والفرد، تشكل أساسًا قويًا

[1] Ibid.

[2] Roberge, Jonathan et Sénécha, Yan et Vibert, Stéphane (2012): op. cit., p 8

[3] Roberge, Jonathan et Sénécha, Yan et Vibert, Stéphane (2012): op. cit., p 9.

[4] Roberge, Jonathan et Sénécha, Yan et Vibert, Stéphane (2012): op. cit., p 9

للتفكير في الزمن الراهن، زمن ما بعد المجتمع الصناعي، والمجتمع الصراعي، والتي تعكس التحولات الكبيرة التي يتعرض لها كل من الفرد والحياة الاجتماعية. وهو ما يسعى إليه آلان تورين بالدفاع عن الفرد، بحيث يكون التركيز عليه غير منفصل عن إهمال فكرة المجتمع نفسها. بالنسبة لتورين، لم يعد علم الاجتماع موجودا لأن المجتمع قد اختفى، حيث إن علم الاجتماع الكلاسيكي مبني على النظام والمؤسسة والدولة، لذلك لم يعد قادرا على احتواء التغيرات الاجتماعية الحالية والعولمة وبروز الهويات المحلية[1].

وأسس كل من برونو لاتور وميشيل كالون منظورا مختلفا عن آلان تورين فيما يخص فكرة نهاية المجتمع، من خلال توسيع التحليل السوسيولوجي ليشمل مجالي العلوم والتقنيات. حيث أثبتا أن الاجتماعي ومن ثمة مفهوم المجتمع عاجزان عن تفسير الظواهر العلمية والأدوات التقنية، لذلك فهما يريان أنه من الضروري أن يخضع علم الاجتماع لثورة حقيقية[2].

فرانسوا دوبي ودانيلو مارتوشيلي ومفهوم نهاية فكرة المجتمع من خلال كتابهما "في أي مجتمع نعيش؟

يؤكد كل من فرانسوا دوبي ودانيلو مارتوشيلي في مؤلفهما أننا نعيش اليوم نهاية فكرة المجتمع وليس نهاية الاجتماعي، خاصة عندما نعلم أن الاجتماعي يمر عبرنا مباشرة. فنحن نتحدث لغة اجتماعية، وتتشكل هويتنا ومشاعرنا الأكثر حميمية بالثقافة، والعلاقات والروابط الاجتماعية، وأننا نتصرف غالبا بعقلانية، ولكن بمساعدة القواعد والرموز الاجتماعية، حيث لا يمكننا الهروب من جميع المكنزمات الاجتماعية الواعية أو اللاواعية التي تحدد كل لحظة من حياتنا، وعليه فإن نهاية فكرة المجتمع ليست هي نهاية الاجتماعي. إن فكرة نهاية المجتمع لا تدعو إلى العودة إلى الأفكار ما قبل الاجتماعية التي عارضت حرية الفرد الخاضع للحتميات الميكانيكية للحياة الاجتماعية، تلك الأفكار التي جعلت المجتمع نتاج قانون طبيعي أو إلهي أو تلك التي صورته على أنه عقد اجتماعي. فما زلنا نعيش، اليوم كما بالأمس، في مجموعات اجتماعية وفي تشكيلات اجتماعية، وفي الأساس، فإن تطور علم الاجتماع ليس سوى إثبات طويل لتأثير الاجتماعي على سلوكاتنا وأفكارنا.

ويوضح المؤلفان أنه بنهاية فكرة المجتمع، نحدد استنفاد نوع معين من التصور للحياة الاجتماعية، الذي بناه معظم علماء الاجتماع بين النصف الثاني من القرن الماضي وسنوات الخمسينات[3] . ففكرة المجتمع لم تكن مجرد بناء معين للمعرفة، بل كانت أيضا تمثلا جماعيا وفلسفة

[1] Ibid.

[2] Ibid.

[3]Touraine Alain, (1981, juin), Une sociologie sans société, Revue française de sociologie, Volume. 22, No. 1, pp. 3-13.

اجتماعية تسعى جاهدة لوصف النظام الاجتماعي في الوقت الذي جرفت الثورة الصناعية والثورة الديمقراطية وظهور الدول القومية الحديثة العالم، حيث كانت فكرة المجتمع، حسب رأيهما، هي الإجابة التي قدمها علماء الاجتماع لكل هذه الطفرات، وطريقة لإعادة صياغة الأسئلة القديمة للفعل الاجتماعي والنظام الاجتماعي والتغيير الاجتماعي. فعلم الاجتماع اخترع "فكرة المجتمع" ضد "لاهوتيات القرن الكلاسيكي"، وضد "إجابات العقد الاجتماعي في قرن الأنوار" وضد "الأجوبة القومية للمفكرين المناهضين للثورة"[1].

ويرى المؤلفان أن فكرة المجتمع هي سبب تطور أفق الفكر السوسيولوجي الكلاسيكي، وأنها غير محددة بشكل واضح. إنها في نفس الوقت افتراض تجريبي ومشروع اجتماعي لعلم الاجتماع الناشئ. فهذا العلم حدد "طبيعة" المجتمع دون أن يكون بالضرورة وضعيا، بينما حدد في الوقت نفسه، دون أن يقول ذلك صراحة دائما، أشكاله المرغوبة والمقبولة. إن فكرة المجتمع هي موضوع المعرفة والفلسفة السياسية، وأن علم الإجتماع نشأ كنشاط هجين، بين العلم والأدب، بين العلم والفلسفة الاجتماعية[2]. إن مسألة "انخراط" علماء الاجتماع في مشاكل القرن ليست مسألة ثانوية حسب رأي المؤلفين.

ويؤكدان أيضا أن تعدد أصول وأهداف علم الاجتماع دفعته إلى أن يضع لنفسه هدف وصف وتحليل الكل الاجتماعي، حيث كان يُنظر إلى المجتمع على أنه كل متماسك تنظمه بعض العناصر الأساسية. لقد بنى علم الاجتماع الأنماط المجتمعية، ورسم لوحات التغيير محددا النظام والتغيير من خلال ربط التاريخ والبنية الاجتماعية والثقافة. وهكذا، وحتى الستينيات من القرن العشرين، اقترح الاتجاه المركزي في علم الاجتماع أطرا اجتماعية يمكن من خلالها تحليل وتحديد الممارسات والمؤسسات الاجتماعية؛ لقد عرّف المجتمع بأنه حديث، ورأسمالي، وصناعي، وجماهيري، وديمقراطي وغير ذلك، حيث توجد وراء كل هذه النظريات، ونسخها المختلفة، وأيديولوجياتها ومناقشاتها، صورة تمثيلية للكل الاجتماعي الذي كان فكرة المجتمع نفسه.

ويشير المؤلفان أنه ومنذ حوالي ثلاثين عاما، خاصة بعد محاولات كل من بيل وتورين لتعريف المجتمع ما بعد الصناعي، تخلى الفكر السوسيولوجي إلى حد كبير عن فكرة الكل الاجتماعي، ومن ثمة فكرة المجتمع[3] . وعلى الرغم من أن علم الاجتماع استمر في وصف الممارسات الاجتماعية

[1] Nisbet, Robert Alexander, (1984), La Tradition sociologique, Paris, PUF.

[2] Lepenies, Wolf, (1990), Les Trois Cultures. Entre science et littérature, l'avènement de la sociologie, Paris, Édition de la Maison des sciences de l'homme.

[3] Bell, Daniel, (1976), Vers la société post-industrielle, Paris, Laffont ; Touraine, Alain, (1969), La Société post-industrielle, Paris, Denoël.

والتنظيمات والمؤسسات وأساليب الحياة والثقافات، وتحسينها تدريجيا، إلا أن جهوده النظرية اتجهت بشكل أساسي نحو إشكاليات الفعل الاجتماعي. واليوم، حسب رأيهما، يتم بناء التيارات النظرية الكبرى بشكل أقل مباشرة من التمثلات العامة لطبيعة المجتمعات بقدر ما يتم بناؤها وفقا لنماذج الفعل الاجتماعي المختلفة. هذه هي الطريقة التي تتم بها قراءة "الكلاسيكيات". نحن، يؤكد المؤلفان، "نعيد اكتشاف" المفكرين المهملين نسبيا مثل ميد أو باريتو أو سيميل، وفوق كل هذا، نشهد انتصار الميكروسوسيولوجيا، أو التفاعلية الرمزية أو المنهجية الفردانية على وجه الخصوص، أو نجاح النماذج العقلانية والمعرفية[1]. فحسب رأيهما، لم تعد المناقشات تتعارض مع تمثلات ونظريات الكل الاجتماعي، بل تتعارض مع مفاهيم الفاعل، والذات، والروابط الاجتماعية. فالنظريات المختلفة ليست خالية تماما من تمثلات الكل الاجتماعي، لكنها لم تعد في مقدمة المشهد السوسيولوجي. فبالنسبة للكثيرين، أصبحت فكرة المجتمع عديمة الفائدة.

ويبدو، حسب المؤلفان، أن المجال الفكري لعلم الاجتماع قد انهار، حتى لو كان من العبث إعادة بناء وحدة الماضي بأثر رجعي. فبعض علماء الاجتماع يدرسون المشكلات الاجتماعية والسياسات العامة بناء على فئات من الممارسات التي تحددها، وأهدافها والفاعلين فيها وتأثيراتها، ويقوم آخرون بتحليل التفاعلات الاجتماعية. ولا يزال البعض الآخر يلجأ إلى النماذج المعرفية ونظريات الحجاج، بينما يهتم آخرون بمشاكل الفلسفة السياسية والأخلاقية، ولا يزال آخرون يكرسون أنفسهم للأنثروبولوجيا الثقافية للمجتمعات الحديثة، حيث يؤكدان أن هذه التخصصات كانت موجودة دائما، وهي تقدم علمي لبناء نظريات خاصة[2]. ومع ذلك، حسب رأيهما، فإن معظم هذه الاتجاهات البحثية تتجاهل فكرة المجتمع، حيث لم تعد تقدم صورة عامة للفئات الاجتماعية وبنيتها وتنظيمها[3]. وفي أغلب الأحيان، يُترك هذا التمرين لكُتاب المقالات والفلاسفة، ولأولئك الذين يفهمون أن تعريف المجتمع يظل قضية سياسية، وأن علم الاجتماع، من وجهة النظر هذه، هو نوع خاص من الفلسفة الاجتماعية، على الرغم من أنه لم يتخلى عن رسالته العلمية. إن التخلي عن فكرة الكل الاجتماعي، وعن مشروع تحديد الأنماط المجتمعية، حسب رأيهما، حَول علم الاجتماع إلى "علم اجتماع ما بعد الحداثة".

ويؤكد المؤلفان أن اليوم، تعمل فكرة "المجتمع"، التي تم تصورها على أنها كُل مُنظم، مثل فكرة "الجماعة" في القرن الماضي. إنها نموذج مثالي سابق، ومعضلة ولحظة توازن تبدو فيها الحياة

[1] Jeffrey,Charles Alexander, (1995), Fin de Siècle Social Theory. Relativism, Reduction, and the Problem of Reason, Londres, New York, Verso.

[2] Berthelot, Jean-Michel, (1990), L'Intelligence du social, Paris, PUF.

[3] Giddens, Anthony, (1987), La Constitution de la société, Paris, PUF, 1987 ; Giddens, Anthony, (1994), Les Conséquences de la modernité, Paris, L'Harmattan.

الاجتماعية المعاصرة كأزمة طويلة، مثل مواجهة عالم ضائع وتطور مدمر مع الفردانية، والسوق، والعقلانية، وإزالة الأفكار الدينية والسحرية عن العالم. فبينما قاوم علماء الاجتماع الكلاسيكيون، حسب رأيهما، هذه الرؤية من خلال بناء فكرة المجتمع بدقة، فإن غالبيتهم الآن قد تخلوا عنها بحذر، وأن معظم الإجابات الكلاسيكية لم تعد مقبولة، والأسوأ من ذلك أنها ترتبط أحيانا بأكثر جوانب الحداثة مأساوية وإثارة للجدل. ويرى المؤلفان أن لا أحدا ساذجا اليوم بما يكفي لربط الحداثة بالتقدم والسير مرة أخرى في دروب التاريخانية، حيث لم يعد تعريف المجتمع كنظام طبيعي وكمجموعة من الوظائف، بحيث يعكس تعقيد وتنوع السلوكات الاجتماعية. فهوية الفاعل والنسق هما النقطة الحاسمة في جميع نظريات الفعل. باختصار، يوكد المؤلفان، لم نعد نؤمن بالإجابات القديمة.

ويشير المؤلفان أنهما شاركا في كتاب اعتبراه ولو بشكل غير مباشر، مساهمة أصيلة في حركة "تفكيك" فكرة المجتمع[1]، حيث حاولا أن يظهرا أن مفهوم "الدور" يجب أن يحل محله مفهوم التجربة الاجتماعية في إطار أن الفاعلين يضطرون إلى إدارة العقلانيات والمنطقيات المختلفة. فحسب رأيهما، إذا لم يكن للفعل الاجتماعي وحدة، فحتى المجتمع الذي يحدده لا يملكه أيضا، فالفعل الاجتماعي، يؤكدان، أنه تراصف لمجالات اجتماعية وعقلانيات مختلفة. وبشكل دقيق، إنه يمثل ملتقى مختلف التعاقدات ومكنزمات الإندماج والتحديدات الثقافية للفرد. فعلى سوسيولوجيا الفعل، حسب رأيهما، التي تنتبه إلى تناقضات الفعل الاجتماعي وسيرورات تشكيل الذاتية، أن تبعدنا بشكل قاطع عن أكثر المفاهيم الكلاسيكية للمجتمع. وأن نبني علم الاجتماع لما بعد الحداثة، عوض علم الاجتماع ما بعد الحداثة كما يقول بومان[2] . هذا يعني أنه إذا لم يعد من الممكن تقديم المجتمع ككل طبيعي متكامل حول ثقافة وأسلوب إنتاج ومجموعة من الوظائف، فليس من الضروري التخلي عن فكرة المجتمع ودعوة علم الاجتماع لبناء صورة تجريبية وفلسفية للجماعات التي نعيش فيها.

ويؤكد المؤلفان أنه إذا لم تعد إجابات علم الاجتماع الكلاسيكي مناسبة، فإن الأسئلة التي طرحها لم تختف بعد، خاصة معرفة ما "يجمع" المجتمع ككل، كأساليب الهيمنة، وبناء الرهانات الجماعية، وارتباطها بالتجارب الفردية، فعلى الرغم من أن الإجابات الميكروسوسيولوجية خلاقة ومثيرة ومقنعة، لا يزال من الضروري، حسب المؤلفان، معرفة كيف ينتقل الفرد من التسويات المحلية إلى المكنزمات العامة. فالمجتمع باق في مجال ومشروع علم الاجتماع، أي من خلال عدم افتراض قطيعة بين السيرورات البينذاتية ومكنزمات النسق. فالفرد حسب رأيهما، ليس من المؤكد أن يتحمل هذه القطيعة، لأن العديد من السوسيولوجيات تخلت بسهولة عن تصورات الكل الاجتماعي التي أعادت تقديمه بطريقة غير مباشرة كدليل ضمني على نهاية المجتمع. إن القطيعة المفترضة بين

[1] Dubet, François, (1994), Sociologie de l'expérience, Paris, Édition Seuil.

[2] Bauman, Zygmunt, (1992), Intimations of Postmodernity, Londres, Routledge.

الميكروسوسيولوجيا والماكروسوسيولوجيا، يؤكد المؤلفان، هي تصور لمجتمع يكون فيه الإندماج الاجتماعي والذاتي مستقلا عن الإندماج النسقي العضوي. إنها هذه القطيعة التي نرفضها هنا، يقول كل من فرانسوا دوبي ودانيلو مارتوشيلي.

ويوضح المؤلفان أنه لا يمكن التخلي عن فكرة المجتمع لأن بناء تصور للحياة الاجتماعية جزء من رسالة علم الاجتماع الذي لا يرغب في المخاطرة بالوقوع في "التفاهة". يقول المؤلفان في هذا الصدد: "إذا افترضنا أن علم الاجتماع هو فلسفة اجتماعية من نوع معين، فعليه أن يكون قادرا على توضيح المشاكل والنقاشات التي يواجهها الفاعلون في إطار ما يدركونه كمجتمع. وهذا لا يعني أنه يجب أن يكون خبرة، أو تكنولوجيا مساعدة في اتخاذ القرار، ولكنه لا يمكن أن يتجنب إنتاج تصورات للمشاكل الاجتماعية وللمجتمع نفسه"[1]. ويضيفان أيضا أنه لا يمكن التصرف كما لو أن هناك طلبا اجتماعيا قويا في هذا الصدد، في الوقت الذي لم تعد فيه الأيديولوجيات والتصورات التقليدية قادرة على تفسير "الواقع". فالسوسيولوجيون، حسب رأيهما، لا يحبون أداء دور اجتماعي يلزمهم، وليس لهذا السبب أنهم لا يقومون به ضد إرادتهم. فاليوم كما في الأمس، يؤكدان، يساهم علم الاجتماع في بناء التصورات عن المجتمع.

ويشير المؤلفان إلى أنه من المهم بناء صورة للمجتمع الذي نعيش فيه، لأننا نشعر جيدا بأننا اليوم في مفترق الطرق، ملتزمون بتغيرات مهمة مثل تلك التي عاشها "الآباء المؤسسون" عندما تشكلت المجتمعات الديمقراطية والصناعية والوطنية. فعظمة هؤلاء الفلاسفة، حسب رأيهما، تجلت في عدم الاستسلام تماما للحنين الجماعي، وعدم السماح لأنفسهم بالانغماس في الشعور بالأزمة. ومع ذلك، اليوم يوجد خطر كبير، خاصة في المجتمعات الغربية خاصة فرنسا، من الإنجراف نحو الصور السهلة للأزمة، وعدم تصور المجتمع الفرنسي إلا تحت التصورات التي كانت له منذ بزوغ الجمهورية الثالثة إلى نهاية الثلاثين السنة من القرن الماضي. يقول المؤلفان: "سنجد أنفسنا في بديل مميت بين "الجمهورية" و"النموذج الفرنسي"، باختصار، تمجيد ماض غير محتمل، و"فظاعة اقتصادية" للعولمة. لا يمكننا الهروب من هذا المأزق إلا من خلال تحديد المجتمع الذي نحن فيه "بشكل وضعي"، من خلال استعادة قدراته على الفعل"[2].

ويؤكد المؤلفان أنه لوصف المجتمع الذي نعيش فيه، يجب أن نتجنب الإجابة المزدوجة "لا شيء يتغير" و"دائما هناك جديد". بل يجب أن نرفض فكرة الثبات والانقطاع الجذري، وأنه ليس هناك حلولا أخرى سوى وصف متأن لمجتمع معين. ولبناء "نموذج" من المجتمع، يجب قبول جميع

[1] Dubet, François et Martuccelli, Danilo, (1998), Dans quelle société vivons-nous ? 1° édition, Éditeur Editions du Seuil, p 22.

[2] Dubet, François et Martuccelli, Danilo, op. cit., p23.

المجتمعات المقارنة، وبناء نماذج وأنماطا خالصة من بعض المتغيرات البارزة في سياقات وطنية مختلفة – أمريكية، وآسيوية، وإفريقية، وأوروبية. ويقول المؤلفان في هذا الصدد: "إن التمرين صعب وطموح للغاية، لأننا نمتلك اليوم معارف اجتماعية مهمة عن جميع هذه المجتمعات. فالسوسيولوجيون والمؤسسات الإحصائية والاقتصاديون جمعوا الكثير من المعلومات"[1]. ويضيفان كذلك أنه إذا كان من الممكن القبول بأن الحداثة واحدة في مبادئها الكبرى، فإن طرق التحديث ونماذج التغيير تظل متعددة ووطنية، وأنه إذا كانت القيود الاقتصادية متجانسة نسبيا، فإن الطرق التي تدمج بها المجتمعات وتديرها، تتفاوت بشكل ملحوظ من حالة إلى أخرى، حيث تُحَدِّدُ المجتمعات من خلال نموذجها للتغيير وليس بقدر ما يتم تحديدها بمكنزمات اشتغالها. فالمجتمع حسب رأيهما ملتقى عشوائي للاقتصاد والثقافة والنظام السياسي[2].

ويرى المؤلفان أنه لا يمكن بناء وحدة المجتمع من بنيته أو نظامه أو من خلال علاقات الطبقات الاجتماعية. فالطبقات الاجتماعية لم تعد كائنات اجتماعية "كلية" تحدد في الوقت نفسه الوظيفة، والهوية الجماعية، والفعل المشترك، كذلك ينفصل الإنتاج والاستهلاك، وتحدد التصرفات وأساليب الحياة بمتغيرات أخرى كثيرة غير المكانة المهنية. ويؤكدان أيضا أن كل من التقسيم الطبقي والهيمنة يتمايزان بينهما بشكل تدريجي، حتى وإن بقي العمل بُعدا أساسيا في التجربة الاجتماعية والروابط الاجتماعية، غير أن مشاكل العمل والشغل لم تعد تشكل نظاما متجانسا، بل يجب في نظرهما إضافة آليات الاستبعاد الاجتماعي الناتجة عن الانفصال المتزايد بين علاقات الإنتاج وعلاقات إعادة الإنتاج من خلال السياسات العمومية ومكنزمات التغيير إلى هذه التغيرات العميقة. فالبنية الاجتماعية حسب رأيهما تظهر ليس فقط كنظام معقد ومتعدد الأبعاد، ولكن أيضا كنظام مفكك، حيث يشكل المتنافسون والمحميون والمعرضون للهشاشة الاجتماعية والمستبعدون أنفسهم طبقات اجتماعية ذات علاقات متعددة من الهيمنة. فليس مؤكد أنه يمكن فهم المجتمع الفرنسي من خلال البنية الاجتماعية سواء كمجتمع، أو كمجموعة "وظيفية" تُؤَمن الاندماج في النسق، أو كتقسيم عمل معقد يعمل على تماسك النظام، كما فكر فيها كل من ماركس ودوركاييم بطريقة متناقضة.

ويطرح المؤلفان السؤال الآتي: هل يمكن أن تكون وحدة المجتمع، أي إمكانية تعريفه كمجموعة متجانسة نسبيا، مبنية على التكامل الاجتماعي، وعلى الثقافة، وعلى بعض القيم الكبرى المستدمجة من قبل الفاعلين؟ ويجيبان في هذا السياق أن مجتمعات اليوم تشهد تفككا، حيث إن الظاهرة البارزة، حسب رأيهما، هي تفكيك عمليات التنشئة الاجتماعية. فالمدرسة، والأسرة، ودور العبادة في نظرهما لا يمكن اعتبارها مؤسسات اجتماعية بالمعنى التقليدي للكلمة، هي فقط أطُرا اجتماعية يقوم فيها

[1] Ibid.

[2] Ibid.

الأفراد ببناء تجاربهم ويتشكلون فيها كذوات. فاليوم، حسب المؤلفان، نشهد تزايد سيرورة الفردانية، واستعراض مستمر للفرد لنفسه في المسارح الاجتماعية، حيث أصبح هذا الفرد أكثر عرضة وتحت تأثير كبير لسلسلة من التحديات المتعلقة بالالتزام كونه حرا وسيدا، أي مواجهة بين بنية اجتماعية مفككة وثقافة فردية، والتي تتسبب في تزايد "التفسير السيكولوجي" للقيود والصراعات الاجتماعية. إذ يؤكد المؤلفان أنه يجب تفسير المطالب الهوياتية النابعة بشكل أقل من مقاومة الماضي بهذه الطريقة (التفسير السيكولوجي لكل ما هو اجتماعي) عوض طرق إعادة بناء الهويات وطرق المشاركة في تنشئة الفرد. فوحدة المجتمع لا تعطى من خلال ثقافته وطرقه في التنشئة الاجتماعية، وهو ما أكدته جميع سوسيولوجيات الفعل المعاصرة حسب رأيهما.

لم يعد المجتمع في نظر المؤلفين، يظهر كمجموعة طبيعية متكاملة من خلال وظائفه النظامية وثقافته. فلا زلنا، حسب رأيهما، نعيش في مجموعة ونشعر بأننا جزء من تاريخ جماعي. ويقولان في هذا الصدد: "تتشكل هذه القناعة في نظام التمثلات الذي يتألف من الحركات الاجتماعية والمجال العمومي والحياة السياسية. وبعبارة أخرى، يتصور المجتمع ذاته كمجتمع في "إرادته" ليكون مجتمعا، بنفس الطريقة التي كان فيها ارنست رينان [1] يعرِّف الأمة على أنها "إرادة". وإذا كان الضعف في بنية متجانسة للعلاقات الاجتماعية وصعود الفردانية قد فككا صورة الحركة الإجتماعية المركزية التي تشكل الفعل الجماعي والتمثيل السياسي، فإن الحركات الاجتماعية، مهما كانت متنوعة، تشكل "نظاما"، وهو نظام من النقاشات والرهانات التي تؤسس من خلال أسئلتها الحياة الاجتماعية"[2].

ويؤكد المؤلفان أن المجال العمومي، خصوصا وسائل الإعلام والتلفزيون، يشارك في بناء تصور للمجتمع. وأن هذا المجال الفوضوي يتأرجح بين سوق الترفيه والتعبيرات والنقاشات. فهذا المجال غير البريء والبعيد عن النقاشات العقلانية للرأي المستنير في عصر الأنوار، حسب رأيهما، يشارك بشكل نشيط في بناء تصور للحياة الاجتماعية كمجتمع. كما يؤكدان أيضا أن المجتمع يتم بناؤه من خلال الفعل السياسي المشترك بين وظيفة الصورة الرمزية للأمة، والعقلانية في السياسات العمومية، والإستراتيجيات الدولية. ففي هذا النظام غير المتوازن، والمعقد، والضبابي، يفهم المجتمع نفسه ويبني ذاته. كما أن الديمقراطية لا تظهر في هذا السياق كفلسفة سياسية خاصة فقط، بل كأسلوب لبناء مجموعة لا يمكنها أن تؤسس تماسكها ووحدتها في ثقافتها وبنيتها الوظيفية.

---

1 إرنست رينان، فيلسوف ومؤرخ وكاتب فرنسي عاش في القرن التاسع عشر، ناقش مسألة الأمة في عمله الشهير المعنون "ما هي الأمة؟" الذي نشره في عام 1882. في هذا النص، يقدم رينان تعريفًا للأمة مركزا على الرابطة الطوعية والروحية بين الأفراد الذين يشكلونها، بدلاً من المعايير العرقية أو اللغوية. بالنسبة لرينان، تقوم الأمة على "استفتاء يومي"، أي على الإرادة المتجددة باستمرار لأعضاء الأمة للعيش معًا.

2 Dubet, François et Martuccelli, Danilo, op. cit., p26.

الخاتمة:

تهدف هذه المحاولة حسب المؤلفان إلى تقديم وصف واضح ومعقول للمجتمع، كما يمكن اعتبارها جزءا من مشروع الحداثة نفسه. فاستنادا إلى المعطيات الحالية، لا تؤكد هذه المحاولة الوصفية سوى ما كان يقوله "الآباء المؤسسون" لعلم الاجتماع عندما كانوا يعتقدون أن المجتمع ينتج نفسه بنفسه، وأن الأفراد يصنعون تاريخهم دون أن يعرفوا حقا كيف ولماذا؟ ولكن هذا الاعتقاد يثير الأرق في كثير من الأحيان، حيث لجأ الكثير من الفلاسفة الاجتماعيين إلى مفاهيم وتصورات "الطبيعانيين" للمجتمع. لقد هدمت سوسيولوجيا الثلاثين السنة الماضية هذه المراجع الطبيعانية. ولا يخرج هذا الكتاب عن هذا الاتجاه، ولكنه أيضا كتاب "كلاسيكي" فيما يخص التساؤل عن طبيعة المجموعات الاجتماعية عندما يبدو الفكر الاجتماعي ممزقا بين إثنين من السيناريوهات، الأول يتعلق بالاندماج في الحياة الاجتماعية من خلال مكنزمات السوق، والثاني يتعلق بتقليص مفهوم المجتمع إلى مفهوم الأمة. وإذا كان لا بد من الدفاع عن فكرة المجتمع، ولو بصيغة متجددة، فذلك لأنها تستبعد هذا البديل.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: اللغة العربية:

- جاكوبي، راسيل (2001): نهاية اليوتوبيا، الطبعة الأولى، ترجمة: فاروق عبد القادر، الولايات المتحدة الأمريكية: دار النشر بازيك بوكس.
- فرانسيس، فوكوياما (1992): نهاية التاريخ والإنسان الأخير، الطبعة الأولى، ترجمة: حسين أحمد أمين، الولايات المتحدة الأمريكية: دار النشر فريي بريس .
- ليوتار، جان فرانسوا (1994): الوضع ما بعد الحداثي، الطبعة الأولى، ترجمة: أحمد حسان، فرنسا: دار النشر مينوي .

ثانيا: اللغات الأجنبية:

- Bauman, Zygmunt (1992): Intimations of Postmodernity, Londres, Routledge.
- Bell, Daniel (1976): Vers la société post-industrielle, Paris: Laffont.
- Touraine, Alain (1969): La Société post-industrielle, Paris: Denoël.
- Berthelot, Jean-Michel (1990): L'Intelligence du social, Paris: PUF.

- Dubet, François et Martuccelli, Danilo (1998): Dans quelle société vivons-nous? 1° édition, France: Éditeur Editions du Seuil.
- Dubet, François (1994): Sociologie de l'expérience, Paris: Édition Seuil.
- Fukuyama, Yoshihiro Francis (1992): The End of History and the Last Man, 1st edition, United States: Free Press (publisher).
- Giddens, Anthony (1987): La Constitution de la société, Paris: PUF.
- Giddens, Anthony (1994): Les Conséquences de la modernité, Paris: L'Harmattan.
- Jacoby, Russell (1999): The End of Utopia: Politics and Culture in the Age of Apathy, 1st edition, United States: Basic Books (publisher).
- Jeffrey, Charles Alexander (1995): Fin de Siècle Social Theory. Relativism, Reduction, and the Problem of Reason, Londres, New York: Verso.
- Lepenies, Wolf (1990): Les Trois Cultures. Entre science et littérature, l'avènement de la sociologie, Paris: Édition de la Maison des sciences de l'homme.
- Lyotard, Jean-François (1979): La Condition postmoderne: rapport sur le savoir, 1° édition, France: Éditeur Minuit.
- Marcuse, Herbert (1968): La Fin de l'utopie, 1° édition, France: Éditeur Editions du Seuil.
- Nisbet, Robert Alexander (1984): La Tradition sociologique, Paris: PUF.
- Roberge, Jonathan et Sénéchal, Yan et Vibert, Stéphane (2012): la fin de la société: débats contemporains autour d'un concept classique, 1° édition, Canada: Éditeur Athena.
- Touraine, Alain (1981, juin): Une sociologie sans société, Revue française de sociologie, Volume. 22, No. 1, pp. 3-13.
- Touraine, Alain (2013): La Fin des sociétés, 1° édition, France: Éditeur Editions du Seuil, 2013.